

القرية المصرية

بقلم الدكتور منصور فهمى بك

مدير دار الكتب والنشر بمجمع فزاد الأول للغة العربية

ما من أحد نال حظا من الذوق السليم ، وأتيح له أن يعيش في ريف مصر وقراها إلا شعر بحاجة هذا الريف وتلك القرى الى الإصلاح .

فقد تمثل القرية — حين ترى من بعيد — كأنها ركام من التقع والعفر ينمقد على بساط محدود من السندس ليعطل نسق هذا الجمال الممدود . وكأنى بالقرية المصرية — وهى تبدو كرقعة سوداء قائمة في وجه هذا الفضاء الريفى الذى يسطع ضياؤه وتصفو سماؤه — كأنى بها فرضت لتسؤه ما ينبى أن يكون إنعاشا للتواطر وإمتاعا للنواظر .

أما فى داخل القرية فطرقات متوية متربة ، لا استواء فيها ولا تعبيد ، وأخرى على جوانبها أكوام من الأسمدة ولأقذار ، تطوف حولها أبابيل الذباب - ويثار فى مفسود جوها الغبار .

وإذا أقيت ببصرك على ما يندو فى هذه السبل و يروح ، فكثيرا ما يقع البصر على انسان رث الثياب أغبر لوجهه أصفر اللون أرمد العين أو على حيوان مستأنس يتمرغ على كومة كأنه يساظر القرية أو تساطره بعض ما يلازمها من السوء أو على أطفال يلعبون فى القفر ويعبثون فى الأقدار .

وإذا أشعت النظر فى جوانب هذه انطراقات فثم بيوت من اللبن الأخضر أو الأحمر مظمنة ضيقة الموائذ ، مكفهرة اللون ، خالية من المتاع إلا من بعض جرار الماء العكرا ، وأدوات أولية للعبين والحبز والطبخ ، وأردية لميئ القطاء وسيئ الوضأ ، وهماك يحوم بعض الدواجن حول الآدميين القابعين فى أعقار هذه أندور المشكلة فى أحط الأوضاع وأبشع الصور .

وإذا أردت أن تبين ما قد يتأخم هذه القرية ، فثم البرك والمستنقعات ، أو المقابر عنى على بعضها الزمن فانفرت رموسها ، وربما تبعثرت منها بقية من عظام . وقد تمر على دهن الماء — وهو فى قرية من قرى مصر — ذكريات الماضين وخيان الأولين ، فيلوح له أنه فى عالم تولى من آلاف السنين . لأن القرية المصرية ظلت الى اليوم كأنها هى قرية

الغابرين ، لا تتغير ولا تبدل إلا الى الأسوأ ، والا في القليل الذي لا ترتفع به سمعتها ، ولا تهذب به صورتها .

ثم قد تطوف بذاكرة المرء صورة لبعض قدى البلاد القمبية التي عرفت فيها نظافة المباني ، وبشاشة الوجوه ، وسر الأهلين ، وتذليل أسباب العيش لهنى ، فأخذ الرعدة شفقة وجزعا ، ويسمى بالله من وهدة تنردى فيأقرى مصر ، ويكاد يستولى اليأس على نفسه عند ما تتجسم له كثرة النواحي النقيرة الى الإصلاح ، ويصبح من وطأة اليأس قائلا يا لهول طريق هذا الإصلاح ، ويا لوعورته وعسره !

حقا قد يتعذر على المرء أن يتصور استحالة القذارة الضاربة المحضة إلى زخافة تنشهاها النفس ورضاهها الذوق السليم ، وأن يأمل في تحوّل هذا الركام المتلاحق من المساكن الخائقة ، ليشترى بيوتا منتظمة ، يطيب للآدمى فيها النواء ، وأن يرجو صيرورة هذه الوجوه القاتمة المقبرة المكفهرة ، وتلك الجسوم الهزيلة المتراخية ، إلى وجوه ضرة مستبشرة ، وأعواد صلبة زاهية ، وأن يرى تطور هذه الطرقات المعوجة إلى طرقات لا يتعثر فيها السائرون ، ولا يرتطم فيها العابرون . وأن يجد التواصل والتناسق بين صفاء تلك السماء ، ونصرة تلك الخصر ، وودامة تلك النفوس المؤمنة القانعة ، وبين هذه القرى التي تضم في جنباتها الحزينة من يستمتعون بهذا الصفاء ويسرحون في هذه الخضراء ويتسعون أجواء هذا الوادى السخى الجميل .

وإنه لمن المؤلم المض أن يعيش المرء تحت سماء مصر الخالدة ، وفي عصر يزهو بمدنيته وحضارته ، ويشمر أن نحو أربعة آلاف قرية ونحو ثلاثة أضعاف هذا العدد من الدساكر والمحلات وكلها ينتظمها وادى النيل المبارك الميمون على نحو ما قدمت ووصفت .

لقد انفتت القرية المصرية وشأن الفلاح نظر الكثيرين من العلماء والكتاب من أجناب ومصريين . فوجهوا البحوث في شتى النواحي من تاريخية ، وحرفية ، وهندسية ، وعمارية ، وأدبية ، واقتصادية ، وأخلاقية ، وما إلى ذلك ، نذكر من هؤلاء الباحثين على سبيل المثال ماريت ، وراشيدان ، وآرتس ، والأمير طوسون ، وبرهن ، وديمنجون ، والأب عيروط ، وويلكوكس ، وموصرى ، وكريم ، وهيكل ، وحسن الهلباوى ، ورشاد ، وغلاب ، وغيرهم .

ومع ذلك فإنه بالرغم مما جهر به الكتاتون لإيقاظ هذه القرية من سباتها فإنها مازالت على حالها من البؤس والبلاء .

قد يقتبط مصر يون لوصول طلائع الإصلاح والتقدم التي بدأت سيرها قبيل بداية هذا القرن إن شتى نواحي البلاد من سياسية ، وعلمية ، واقتصادية ، وصناعية ، وصحية ،

وقضائية، وزراعية، وتعاونية، ورياضية. وكل أولئك متصل بخير الفلاح من قريب أو بعيد.

لكن القرية نفسها — التي هي مثنى هذا الفلاح المثل لكثرة المصريين — مازالت حار بمر الشكوى مما هي عليه من سوء حظها رغم ما سن من القواعد لمجالس بلدية ومجالس قروية من سنة ١٩٠٩ أو سنة ١٩١٨ ورغم ما أنشئ من العزب والقرى النموذجية التي كأنها قطرة عذبة في بحر أجاج.

وقد يعجب الباحث فيسائل نفسه : لم تقدمت في مصر شتى النواحي الاجتماعية وحلفت وراها القرية ممعنة في هذا التاجر الملموس؟ وعندئذ يأنس المرء لاستعراض الأسباب الملية والجغرافية والاقتصادية التي أثرت في تصوير القرية وعملت على تأخرها. وقد يلوح له أن بفسر تجمع البيوت وتكدسها في القرى بأنه كان نتيجة لمقاومة المعتدين حين كان الأمن مختلا والسلام مضيقا. وربما يجد أن العلة في ذلك ترجع لتأثير الري حين كان يتم الأرض في مسافات شاسعة ويسبقها المساء زما طويلا، وربما أتى على البناء. وربما يبدو للباحث أن انحطاط القرية كان نتيجة طبيعية لضعف ثقافة الناس وانحطاط مستوى ذوقهم العام.

على أنه إذا كان من أسباب انحطاط القرية المصرية هذه العوامل شتى أو جميعا فمدى أن أكر العوامل أثرا وأبغها خطرا هو ضعف الإرادة الإصلاحية واسترخاء عزيمته من يعينهم هذا الإصلاح.

من الحق أن العوامل المحيطة وشؤون المحيط، لها أثرها الفعال في حال القرية، لكن ليس من الحق أن يتخذ من أثر الطبيعة تكأة لتخدير ضمير الإصلاحية حين يزعم الزاعمون أن القرية المصرية ظاهرة اجتماعية لا بد أن تخضع حتما في صورتها لعناصر المحيط الطبيعي وسلطان البيئة، فهي ولده من تراب مصر ومائها وجهل الفلاح وفقره وقنوصه وماداته. فقصي عليها أن تتأثر بما نشأت عنه من تراب وجهل وفقر وقنوص، لكن قد تنامي هؤلاء الزاعمون أنه متى كانت عزيمته الإنسان كبيرة ونزعاته سامية وعقله المدبر قويا فإن عوامل الطبيعة لا تلبث أن تخضع ويضعف أثرها أمام مضاعفة العزم وقوة الفهم وعظمة الهمة والتزوع إلى المثل الأعلى.

لقد كان "محمد علي الكبير" من ذوى الفرائم الإصلاحية القوية، لكن عزيمته كانت مطبوعة بطابع 'الجندي'، فكانت المصانع والمنشآت والمدارس والمعاهد العلمية التي أنشأها وأرسى قواعدها ودعم بناءها، تتناسق وتتعاون جميعا لخدمة القوى الحربية. فلو أن حركة إصلاحية أبعثت من عزيمته مشبوبة كعزيمة محمد علي واتجهت نحو القرية المصرية في صدق وثبات لخصص أضخم رصيد في ميزانية الدولة لإصلاح القرية والفلاح، ولوجه أظهر تشريع

لما فيه خير الفلاح وسلامه ، وبلحادث بحوث الدلماء و الهذمات الأدباء فى سبيل القرية ،
ولسجرت أنواع لقون لسخرا .أ .مىه نغمها وترقيها . وعلى الجملة لتضافت جمع القوى
تدستحل قوة متحدة ماحة فى إخراج الفلاح من الظلمات إلى انور ولصحح كلها فى لحن
واحد متسق . . "ريف مصر وقرية مصر وفلاح مصر" .

وضمف العزيمة الإصلاحية إذن هو السبب الأول فى وحدة القرية المصرية . أما السبب
الثانى فهو الخطأ فى التسميات التى رسمت لإصلاح القرى . ومن مظهر هذا الخطأ أن
الذين رسموا السبل لهذا الإصلاح لم يصيبوا شوفيق المرتجى برغم غيرتهم المشكورة . فلذين نشأوا
المستشفيات المتسناة لعلاج بعض الأمراض المتوطنة قد برثون بعض المرضى نوقت قصير
ثم لا يلبث المرض أن يعاود الفلاح .أودته أى أسلوب انياة الذى جرائه مرصه وسفامه .
فكان 'صلحين يقدمون' العلاج ويعفلون الوقاية .

وكذلك سنت قواعد وقوانين لردم البرك والمستنقعات ، على أنه أغفل فى الحساب تيسير
الوسائل لردم هذه البرك والمستنقعات ، لما رالت أكثر القرى تحيط بها دبرك بل وتغلق فيها
خفا وظلت القوازين واللوائح المسنونة معظلة لعسر التطبيق وإهمال الوقاية .

شهدت فى يوم من الأيام طبييا من أطباء وزارة الصحة يفد بموكبه وعربته المنتهلة
وأشرطنه المتحركة فيعظ أهل القرية ويمرض عليهم فى ماحة من ساحاتها بعض ما تمثله
الصور من انتحال الأمراض وتطورها . فكانت مظاهرة لطيفة تسلى فيها النساء والأطفال ،
وتدوق منها الشيوخ الكلام المسول ، وبعذئذ انطلق كل من السامعين إلى شأنه ومضى
لسبيله ليمودى فى حياته الصحية سيرته الأولى .

كان لم يكن بين المحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سمر

وحضرت فى ذات يوم من الأيام مجلساً ضم سراه القرية وأخذ أحد الأطباء يقيم لهم
الجمجة بعد الجمجة ، ويدلل لهم على فصل جعل الأسمدة والمنتخبات المتزلية والأحطاب بماى عن
البيوت . وكان جميع السامعين يظهرون استحسانهم لقوله ويؤمنون عليه كأنهم قد استجابوا
من قورهم لدعوته ، لكن لم تنقل الأقدار من مكابها ولم تتغير مواضع الأحطاب .

فلوسائل التى جادت بها قرائح الفيورين على الإصلاح غير موصلة إذن للغاية المنشودة
فلا نصح للسحون ، ولا وعظ الو عظان ، ولا مكافحة الأمراض المتوطنة على نحو ما تكافح به ،
بمبلمنا ما نرجو لريف مصر من سؤو المكانة .

وعندى أن العلاج الاسمى إنما يكون مرجمه السلطان والقهر ولتضحية ، ولو كان
هد لصيب الذى جمع شيوخ القرية ليكمل لهم التصح يملك أن يجمعهم بسلمطانه على ما يريد

لهم من خير وكان ورءه من النظم التشريعية والتنفيذية ما يجعل رادته ماضية ومشيئته نافذة لاختصر الزمن ووصل الى نتائج المرجوة من أقرب السبل وأدناها الى العية .

ولو كان هذا الطيب الذى استقل الملاح فى المستشفى المنتقل لخصه من مرضه حينما من الدهر يملك لأسباب ليضرب الخرائب ويفرض الفيروس لتوقاية من عودة لمرض الى الملاح لما رأينا المنصايين بالبله، رسيًا يشهون منها مدة لا تتجاوز مدة تمريرهم إلا قليلا .

وإنها لكثيرة تلك القنائص وتلك الأور التي يصح أن تضرب انضرائب من أجل عهده أو تحدينها ، وإمها لعديدة تلك الحلات الحقة التي يوز أن تفرض على سواد الناس لياولوه أو يتجنبوها . فأفقر الملاحين قد يتفق من ماله فى المكيفات والتدخين مالمو اشترى يتنم حذاء من المطاط أو الجلد الأصم لوقى نفسه شر كثير من الأمراض . وقد يتفق بعض الملاك من ماهم فى مظاهر الرفه والابهة ما لو أنفقوه فى أدوات الحياة الضرورية لعامهم الفلاح لأفادوا واستفادوا . ولكن لا وازع اليوم من النفوس والصماير ولا وازع من الهوانين والشرايع ولا سلطان للحاكمين .

ولو أن الحكومة تسخر الناس وتشغل المتعلمين فى فترة من فترات العام التي يسكن فيها نشاط الأعمال الزراعية لتصلح القرى بسق المنافذ وتعيد الطرق وردم المستنقعات ونزع الملكيات العائنة المعطلة للإصلاح وغرس الأشجار وتهذيب الشكل لما اشكى حارس خزانة الدولة من ضخامة تكاليف الإصلاح حين يقدرها المقدرون بما يذف على الثلاثين مليوناً من الجنيحات .

قد يقولون : " إنه قد فات زمن مثل هذه السياسة الإصلاحية القاهرة التي تحد من الحريات ولا تتمشى مع الديمقراطية . لكن ما العمل اذا كانت الحريات تستخدم استخداما خاطئا لا يرضاه الله ولا يقره الذوق السليم ولا يساير حاجة الحياة من التحسين والتجويد والكمال ؟

ان القوانين الحازمة المرعبة من أنجع الوسائل التي تربي الشعوب فى أخلاقها وذوقها . وفى الحديث " إن الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن " أياح أن تحب الحريات الباطلة ويموت للذوق السليم ؟ أياح أن يحس العدل فى الحياة ويقبر الحسن والجمال ؟ كلا فما كان ذلك من الخير وما كان ذلك من الحق والانصاف .

ان الشعوب كثيرا ما تربي كما يربي الطفل حين يستخدم فى تربيته وتنشئته كلا الترغيب والترهيب . والمزج والتأديب .

ولقد روى أنه شكى إلى أبي بكر بعض عماله ليقترض منه فلم يقبل أن يؤخذ عامله ،
وقال رضى الله عنه مستنكرا : "أنا أقيد من وزعة الله ؟"

و بينما كان أبو بكر يبيع لوكيل الحاكم أن يأخذ الناس بالسلطان في سبيل الخير ، نجد
أن حكامنا الإداريين يخرجون أن يستخدموا الحزم في هذا السبيل خشية أن يتعرضوا
للؤاخذة والجزاء وبطش القانون والقضاء ، مع إيمان هؤلاء الحكام بأن في الريف نواحى
شتى يتيسر لهم إصلاحها لو منحهم القانون شيئا من حق الزجر والإرهاب والحد من طغيان
الحرابات الآثمة .

لقد نرى مع الأسف أن رجال القضاء لا يحستون الظن بعدالة الحكام الإداريين ،
وزاهم بضجون إذا هم ظفروا بالسعة في النفوذ والسلطان. وأن الحكام لا يحسنون الظن بالقوانين
والنظم المقلدة كأداة للإصلاح في القرى ، وأتسحين تشهد تجاذب الطرفين تميل إلى أن تقرر
أد في كل من القانون والحاكمين نقصا ينبغي أن يكمل . ولعل نقص القانون كان من أن
أكثر مواده مستنبطة من روح الحياة الغربية وتقاليدنا وثقافتها مع ما بيننا وبين الغربيين من
فوارق ذاتية ومعيشية . أما نقص الهيئة الحاكمة فربما كان مرده إلى عدم العناية والاحتياط
في اختيار بعض الحاكمين .

ونظرا إلى ضعف الأداة الحاكمة والقانون ، يرجح بعض المفكرين جانب المدرسة والتعليم
كوسيلة أساسية يجب تقديمها على غيرها من وسائل الإصلاح المنشود . وليس من ينكر قيمة
المدرسة في ذلك الإصلاح لولا أن التعليم وحده لا يحدث إلا أثرا بطيئا قد يظل به الريف
طويلا على ما هو فيه من تماسه وانحطاط . فطالب أدرك الفلاح عن سبيل العلم وتلقن
عن طريق الدين أن النظافة من الإيمان ، وأن الباقيات الصالحات خير ، وأن الله جميل
يجب الجمال . ومع ذلك ظل يتردى في مهاوى القذارة ، وظلت القرية بمعزل عن الحسن
ناورة من معاني الجمال . ذلك بأن الناس ، مذ كانوا ، يعلمون الخير ويحملون الشر ، وقد يعرفون
طريق الجنة لكنهم يسرون في طريق أهل الجحيم . فلا سبيل للخير إلا بممارسة الخير واعتياده .
ولا سبيل لدفع الشعوب المتناثرة إلى الخير إلا عن طريق التنظيم القاهر المسيطر المتشكل
في صور القوانين والتواعد النافذة .

ومن المفكرين من يرجح عندهم أثر الحياة الاقتصادية على كل أثر ، فيجدون أن الإصلاح
المرتبجى لريف مصر وقرائها قد لا يتألى إلا إذا حسنت أحوال الفلاح الاقتصادية فزاد كسبه
وكثر دخله . وإن لا أنكر قيمة الثروة وزيادة الكسب كعامل من أهم عوامل الترقى والتقدم
لكننى لا أقرى على الحق شيئا حين أزم أن قرى كثيرة لا يتقصها الرخاء ولا يعوز أهلها

الزراء ومع ذلك ظلت في كبوتها وانحطاطها . ذلك بأن الثروة والرخاء لا يستلزمان حتما سمو الذوق وسلامة الطبع . وليس الفقر والمترية بمهدين صاحبهما لزاما عن حسن الذوق وتوخى الجمال ، فقد ذكر لنا التاريخ وانبأنا المشاهدة أن شعوبا أعوزها المال والرخاء دون أن يعوزها ذوق الجمال . فما كان الفلاح في اليونان القديمة ثريا ولكنه كان غنيا في تذوق الجمال .

وليس بعار أن يضع غنى الغنى ولكن عار أن يضع التجميل ، وكم من زهرة باسمه نبئت عفوا ولكنها تعين على تذوق الجمال من يهه تذوق الجمال . وكم من مجرى ماء يعين على الطهر والنظافة من عينه أن يتطهر وينتظف .

وإني حين استعيد تاريخ الصبا وذكريات الماضي قد أجد فيها ما يقوى عقيدتي في أن للفقر لا يحول بين الإنسان وبين العيش المبرأ من مظاهر القبح والضعف ، فقد نشأت للشاه الأولى في قرية صغيرة على فرع من فرعى الليل ، وليس حظها من الانحطاط ونصيبتها من القذارة وسههما من الحاجة الى التنسيق دون شبيهاها من قرى مصر . لكر شاء القصاء من نحو أربعين عاما أن يرسل الى هذه الناحية قرويا لبنانيا وزوجته فاستأجرا على مقربة من القرية مساحة تبلغ خمسة أفدنة كانت لبعض أهلى على الشاطئ ، وأقاما في جزء منها كوخا من اللبن والغاب والطين ، وقسماه غرفتين لمتاعهما القليل من مراتب وذرايب وأغطية ، ونصبا عند مدخله بعض فروع الشجر وشكلاها لتصير سقيفة تسلفت عليها كروم تظل مصطبة من الآجر . وعند هذه السقيفة وعلى مسافة أذرع منها قد عثر الورد والريحان ، ووراء هذا الكوخ سيج من القصب والحطب وحوابز أخرى أعدت لقررة حلوب ولبمص الدواجن ولأدوات الخبز والطبخ ومكان الغسل والتطهير ، وكان أغنيا . ثقرية وسراتها يجدون لعيونهم ولصدورهم عند هذا الكوخ التظيف المنظم متعة وانسراحا فيذهبون من وقت لآخر ليربحوا النفس من غمة قريتهم ومساكنهم المتفائلة في محيط من لأفدار .

ولقد عاد رب الكوخ وربته لبلادهم في شيخوختهم المباركة وعفت السنون غير الأيام على آثار هذا الكوخ . ولكنى كلما ذهبت إلى القرية وسرت هناك على شاطئ النيل نظرت إلى حيث كان كوخ الشبيحة وردة وزوجها الشيخ أنطون . وعاء دنى بعض ذكريات الصبا وخيال الأسضى ، وتنبت لفلاحاتنا وفلاحينا لوهاوا كواخهم ونظ . وما كما فعل الشبان "وردة وأنطون" فلقد كاتا دون أكثر الفلاحين ثروة ، لكهما كاتا من الذوق أغنى وأرقى من الكذابين من أعيان ثقرى .

إذن ، ليس للفقر وحده هو الذى رب بأس الثروة وهبوطها فيما تتردى فيه ، فإذا أراد المصلح الاجتماعى أن يتمش عناصر المرص التى هيأت الضعة الثرية المصرية فليعه أنها مزيج

من ضعف العزيمة العامة في الإصلاح وعدم تناسق المشروعات، والبطء المزمع في إجراءات الأداة الحكومية، ومحاكاة القوانين التي لا تلائمتها، وفي اعتلال ذوق الفلاح وانحلال صحته، وانحطاط ثقافته. وفي فقر الحياة الاقتصادية للتنظيم وفيما هو متصل بكل أولئك .

وإذا أراد ذلك المصلح الاجتماعي أن يشير بالعلاج في حالة القرية فلن يبدو له العلاج إلا مزيجاً أهم عناصره الفوازين الزاجرة، والنظم الفاهرة، والإجراءات السريعة الشبيهة بإجراءات الأحكام العرفية، وفرض الضرائب وتسخير كل القوى التي يجب تسخيرها لإقناذ القرية وتقديم ذلك على كل ما سواه .

فلو أن وزارة الشؤون الاجتماعية أتيح لها أن تقوم بتشريعات جريئة قاهرة مريضة التنفيذ وتسن تنظيمات مسيطرة تتأكد بها معاني السلطان لأدركا ثمرات من جهودها في بعض السنين .

ولست أرى من وراء ذلك إلى أن أغمط الوزارة بجهودها في نشر الدعاية وإعداد المحاضرات وتهئية وسائل الإرشاد. إنما مازات أعتقد "أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن".

في مصر الحديثة من يؤمنون أن كل جهد صالح في سبيلها مهما كانت وجهته ومهما تنوعت صبغته لا يبونها المكان الجدير بها بين الأمم مالم ينصلح حال قواها وفلاحها وهم يبلغون ثلاثة عشر مليوناً .

ونحن الآن نعيش في عصر السرعة والسير الحديث الماجل لصالح الجماعات . وهل لأبناء مصر وقد منجهم الله ذلك الرادى الجميل المزود بكل الخيرات أن يشكروا ربهم على ما آتاهم، وأن تكون آية شكرهم العمل على تجميل بلادهم وصيانة هذه الزبجدة الخضراء من وصمات القبح والتشويه .

هل لقوانين مصر، وأموال مصر، وجهود المصريين، وقلوب المصريين، أن تنصرف متعاونة لإصلاح القرى لتجعل حياة مصر الاجتماعية الواسعة فوق كل حياة، ومجدها قبل كل مجد سواه ؟ !

هيئات، هيئات أن يدركا النصب فيما تؤمن به وتدعو إليه !